الأُلْفَـةُ

أ - الأُلْفَةُ قَاعِدَةٌ ذَهَبِيَّةٌ فِي مَعْرِفَةِ الصَّاحِبِ:

أَيْ بُنَيَّ، الأُلْفَةُ مِنَ الْقَوَاعِدِ الذَّهَبِيَّةِ الَّتِي قَعَّدَهَا السَّلَفُ، وَقَدْ دَلَّ عَلَيْهَا الكِتَابُ ، وَالسُّنَّةُ ، وَالْفِطْرَةُ.

قَالَ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - : ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٣].

وَفِي « الصَّحِيحَيْنِ »(١) عَنْ عَائِشَةَ - رضي الله عنها - قالتْ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ - ﷺ - يقولُ: «الأرواحُ جُنودٌ

(١) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٣٣٣٦) - واللفظ لَهُ - ، وَمُسْلِمٌ (٢٦٣٨) مِن رِوَايَة أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - .

مُجنَّدَةٌ[١]، فَمَا تَعَارفَ[٢] مِنْهَا ائْتَلَفَ[٣]، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ[٤]».

قَالَ الحَافِظُ - رَحِمَهُ اللهُ -: «قَالَ الخَطَّابِيُّ: يُحتَمَلُ أنْ يَكُونَ إشَارَةً إلىٰ مَعْنَىٰ التَّشَاكُلِ فِي الخَيْرِ والشَّرِّ، والصَّلاحِ والفَسَادِ، وَأَنَّ الخَيِّرَ مِنَ النَّاسِ يَحِنُّ[٥] إلَىٰ شكْلِه، والشِّرِّيرُ نَظِيرُ ذَلكَ، يَمِيلُ إلَىٰ نَظِيرِه؛ فَتَعَارُفُ الأَرْوَاحِ يَقَعُ بِحَسْبِ الطِّبَاعِ الَّتِي جُبِلَتْ عَلَيْهَا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، فَإِذَا اتَّفَقَتْ تَعَارَفَتْ، وإِذَا اخْتَلَفَتْ تَنَاكَرَتْ.

قُلْتُ - أَي: ابْنُ حَجَرٍ -: وَلا يُنْكَرُ عَلَيْهِ أنَّ بَعْضَ المُتَنَافِرِينَ رُبَّمَا ائْتَلَفَا؛ لأَنَّهُ مَحْمُولٌ عَلَىٰ مَبْدَإِ التَّلاقِي،

(١) جُنودٌ مُجنَّدَةٌ: جُمُوعٌ مُجَمَّعَةٌ، وَأَنْوَاعٌ مُخْتَلِفَةٌ.
(٢) تَعَارُفُ: تَوَافَقتْ صِفَاتُهَا، وَتَنَاسَبَتْ أَخْلاقُهَا.
(٣) ائْتَلَفَ: مِنَ الأُلْفَةِ، وَهِيَ المَحَبَّةُ.
(٤) اخْتَلَفَ: تَبَاعَد.
(٥) يَحِنُّ: يَشْتَاقُ وَيَتُوقُ.

فَإِنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِأَصْلِ الخِلْقَةِ بِغَيْرِ سَبَبٍ، وَأَمَّا فِي ثَانِي الحَالِ فَيَكُونُ مُكْتَسَبًا؛ لِتَجَدُّدِ وَصْفٍ يَقْتَضِي الأُلْفَةَ بَعْدَ النَّفْرَةِ: كَإِيمَانِ الكَافِرِ، وإِحْسَانِ المُسِيْءِ»(١).

وَأَمَّا أَدِلَّةُ الْفِطْرَةِ عَلَىٰ الأُلْفَةِ فَأَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَرَ، وَأَشْهَرُ مِنْ أَنْ تُذْكَرَ؛ فَقَدْ تَوَاتَرَ ذَلِكَ، حَتَّىٰ أَصْبَحَ يُضْرَبُ بِها المَثَلُ، فَمِنْ أَمْثَالُ العَامَّةِ:

«الْقُلُوبُ شَواهِدُ».

وَقَالَ رَجُلٌ لآخَرَ: إِنِّي أُحِبُّكَ. فَقَالَ: «رَائِدُ ذَلِكَ عِنْدِي»(٢).

أَيْ: أَنَّ الَّذِي عِنْدَكَ لِي مِثْلُ الَّذِي عِنْدِي لَكَ، كَمَا قَالَ بَكْرُ بْنُ النَّطَّاحِ:

---

(١) «فَتْحُ البَارِي» (١٠/٤٢٦).

(٢) «مُحَاضَرَاتُ الأُدَبَاءِ» (٣/٥٢).

وَعَلَىٰ الْقُلُوبِ مِنَ الْقُلُوبِ دَلائِلٌ
بِالْوِدِّ قَبْلَ تَشَاهُدِ الأَرْوَاحِ[1]

وَقَالَ رَجُلٌ لِعَبْدِ اللهِ بْنِ جَعْفَرٍ: إِنَّ فُلانًا يَقُولُ: إِنَّهُ يُحِبُّنِي، فَبِمَاذَا أَعْلَمُ صِدْقَهُ؟. قَالَ: «امْتَحِنْ قَلْبَهُ بِقَلْبِكَ، فَإِنْ كُنْتَ تَوَدُّهُ فَإِنَّهُ يَوَدُّكَ»[2].

وَرَأَىٰ ابْنُ عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما - رَجُلاً، فَقَالَ: «إِنَّ هَذَا لَيُحِبُّنِي». قَالُوا: وَمَا عِلْمُكَ؟!.

قَالَ: «إِنِّي لأُحِبُّهُ، وَالأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ»[3].

---

(١) «مُحَاضَرَاتُ الأُدَبَاءِ» (٣/٥٢).
(٢) «مُحَاضَرَاتُ الأُدَبَاءِ» (٣/٥٢).
(٣) «رَوْضَةُ العُقَلاءِ» (ص١٨٠).

وَقَالَ الْعَبَّاسُ بْنُ الأَحْنَفِ:

قَلْبِي وَقَلْبُكَ بِدْعَةٌ[1] خَلْقَاً
يَتَجَارَيَانِ بِصَادِقِ الحُبِّ[2]

ب - أُلْفَةُ الأَخْيَارِ:

أَيْ بُنَيَّ، إِذَا كَانَ الرَّجُلُ الَّذي تُريدُ أَنْ تَصْطفيَهُ لنَفْسكَ مُنَاسبًا ، وَوَجَدْتَ بَيْنَكُمَا أُلْفَةً وَمُشَاكَلَةً، وَانْطَبَقَتْ عَلَيْه الصِّفَاتُ الطَّيِّبَةُ الَّتي تَقَدَّمْتُ لَكَ بذكْرِ شَيءٍ منْهَا، فَعَضَّ عَلَيْه بنَوَاجذكَ ، وَشُدَّ عَلَيْه خَاصرَتَكَ ، وَحَالُكَ :

فَقُلْتُ :أَخِي، قَالوا :أَخٌ مِنْ قَرَابَةٍ
فَقُلْتُ لَهُمْ: إِنَّ الشُّكُولَ أَقَارِبُ

نَسِيبي في رَأْسِي وَعَزْمِي وَهِمَّتِي
وَإِنْ فَرَّقَتْنَا فِي الأُصُولِ المناسِبُ

(١) «مُحَاضَرَاتُ الأُدَبَاءِ» (٣/ ٥٣).
(٢) البِدْعَة -بالكَسْرِ-: الغَايَة فِي كُلِّ شَيْءٍ، والمُرَادُ هُنا الغَايَةُ في الحُبِّ.

جـ - أُلْفَةُ الأَشْرَارِ:

أَيْ بُنَيَّ مَتَىٰ وَجَدْتَ مِنْ نَفْسِكَ نَوْعَ أُلْفَةٍ لِلأَشْرَارِ الَّذِينَ تَقَدَّمْتُ لَكَ بِذِكْرِ شَيْءٍ مِنْ أَوْصَافِهِمْ- فَسَارِعْ لِلْبَحْثِ عَنِ الْمُقْتَضِي لِذَلِكَ مِنْ نَفْسِكَ وَحَاسِبْهَا، وَأَصْلِحْ حَالَكَ مَعَ اللهِ، يُصْلِحْ مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ عِبَادِهِ.

قَالَ الإِمَامُ ابْنُ الجَوْزِيِّ - رَحِمَهُ اللهُ - : «وَيُسْتَفَادُ مِنَ الحَدِيثِ [أَيْ: حَدِيثُ الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ..] أَنَّ الإِنْسَانَ إِذَا وَجَدَ مِنْ نَفْسِهِ نَفْرَةً مِمَّنْ لَهُ فَضِيلَةٌ أَوْ صَلاحٌ- فَيَنْبَغِي أَنْ يَبْحَثَ عَنِ الْمُقْتَضِي لِذَلِكَ؛ لِيَسْعَىٰ فِي إِزَالَتِهِ، حَتَّىٰ يَتَخَلَّصَ مِنَ الوَصْفِ المَذْمُومِ، وَكَذَلِكَ القَوْلُ فِي عَكْسِهِ»(١).

وَإِذَا لَمْ يَكُنْ فِي قَرْيَتِكَ- أَوِ الْبِلادِ الَّتِي أَنْتَ فِيهَا-

(١) «فَتْحُ البَارِي» (٦/ ٣٧٠)، و«دَلِيلُ الفَالِحِينَ» (٢/ ٢٣٧).

خِلٌّ صَالِحٌ، فَإِنَّ لَكَ فِي الكُتُب [١] عِوَضًا عَنْ كُلِّ جَلِيسٍ.

قَالَ الخَطَّابِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ - :

وَإِنِّي غَرِيبٌ بَيْنَ بُسْتٍ [٢] وَأَهْلُهَا
وَإِنْ كَانَ فِيهَا أُسْرَتِي وَبِهَا أَهْلِي
وَمَا غُرْبَةُ الإِنْسَانِ فِي غُرْبَةِ النَّوَى [٣]
وَلَكِنَّهَا -وَاللهِ- فِي عَدَمِ الشَّكْلِ [٤]

أَيْ بُنَيَّ قَدْ تَدْعُو الحَاجَةُ إِلَىٰ مُنَاسَبَةِ مَنْ لا يُنَاسِبُ كَسَفَرٍ، أَوْ عَمَلٍ، أَوْ نَحْوِهِمَا، وَهَذَا لاَ يَحْسُنُ ولا

---

(١) حتَّىٰ الكُتُبُ تَحْتَاجُ لاخْتِبَارِ غَثِّهَا مِنْ سَمِينِهَا أَعْظَمَ مِنْ اخْتِبَارِ الصَّاحِبِ؛ فَإِنَّ صَحِيحَهَا بِسَقِيمِهَا مَعْجُونٌ، حَاشَا كِتَابِ اللهِ، وَمَا صَحَّ مِنْ سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ - ﷺ -.

(٢) بُسْتَ - بالضَّمِّ - : بَلَدٌ بِسِجِسْتَانَ

(٣) النَّوَىٰ - بِزِنَةِ الفَتَىٰ - : البُعْدُ والفِرَاقُ.

(٤) «فَرَائِدُ الخَرَائِدِ فِي الأَمْثَالِ» لِيُوسُفَ بْنِ طَاهِرٍ الخُوَيِّي (ص٣٩٤).

يَجْمُلُ؛ فَإِنَّهُ قَدْ قِيلَ: «المُنَاسَبَةُ تُورِثُ المُشَاكَلَةَ».

وَقِيلَ: «مَنْ جَالَسَ جَانَسَ».

فَحَذَارِ مِنْ هَذَا العِثَارِ؛ فَإِنَّ: «مِنَ الحَبَّةِ مَنْشَأَ الشَّجَرِ»، و«مَنْ بَاعَ عِرْضَهُ أَنْفَقَ».

وَلَقَدْ أَحْسَنَ أَبُو الأَسْوَدِ الدُّؤَلِي حِيْنَ قَالَ:

يَزِيْنُ الْفَتَىٰ فِي قَوْمِهِ وَيَشِينُهُ
وَفِي غَيْرِهِمْ أَخْدَانُهُ[1] وَمَدَاخِلُهْ
لِكُلِّ امْرِئٍ شَكْلٌ مِنَ النَّاسِ مِثْلُهُ
وَكُلُّ امْرِئٍ يَهْوَىٰ إِلَىٰ مَنْ يُشَاكِلُهْ

وَمَا أَجْمَلَ مَا قَالَهُ شَوْقِي:

تَجِدُ الْكُتُبَ فِي النَّقْدِ كَمَا
تَجِدُ الإِخْوَانَ صِدْقًا وَكِذَابا

(١) الأَخْدَان: الأَصْحَاب، واحدُهم: خِدْنٌ- بالكَسْرِ- .

فَتَخَيَّرْهَا كَمَا تَخْتَارُهُ
وَادَّخِرْ فِي الصَّحْبِ وَالْكُتُبِ اللُّبَابَا(١)
صَالِحُ الإِخْوَانِ يُبْغِيكَ(٢) التُّقَىٰ
وَرَشِيدُ الكُتُبِ يُبْغِيكَ الصَّوَابَا(٣)

وَكَانَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ يَتَمَثَّلُ:

لِكُلِّ امْرِئٍ شَكْلٌ يَقَرُّ بِعَيْنِهِ
وَقُرَّةُ عَيْنِ الْفَسْلِ أَنْ يَصْحَبَ الْفَسْلَا(٤)

(١) اللُّبَاب- بالضَّمِّ- الخَالص .
(٢) أَبْغَاهُ الشَّيْءَ : أَعَانَهُ عَلَىٰ طَلَبِهِ .
(٣) «الشَّوقيَّات» (٢/١٧).
(٤) الفَسْل- بالفَتْحِ - الرَّذَائِلُ الَّذِي لا مُرُوْءَةَ لَهُ .